حياة اللغات وموتها

ولماذا تبقى العربية حية

(١)

الشعوب كالبحار : لهذه مدٌّ وجزر ولتلك ارتفاع وهبوط . لبحار موجات تكوّنها الريح فيأتين لاطمات الشاطئ بتجمع مياههن ثم ينفرن في صدر موجات منهجمات . وللشعوب مدنيات تنمو فتعلو الى ذروة المجد والسؤدد ثم تعود الى منحدر الوهن والنسيان وتنحط مرغمة على التخلي عما لديها من نظام وقوة وخبرة لمدنيات جديدات تحلُّ محلها

ما هو سبب هذا التموج الدائم في مناطق الشعوب حتى تهلك فيه اشواط المدنية واحداً بعد آخر ؟ وما هو العامل الذي يجعل الزاهر بالامس جافاً اليوم والخصيب اليوم قاحطاً غداً ؟ لقد درس هذه المسألة الخطيرة طائفة من المؤرخين والاجتماعيين والاثريين فقصّوا لذلك الاسباب ووضعوا المؤلفات الكبيرة . الا ان ابحاثهم لا تفيد في تلافي الانحطاط المحتم على كل مدنية بلغت شأوها المنطاق فرجعت تخضع في هبوطها كما في ارتقائها لناموس التموج الدائم . وليس في وسع المتأمل المخلص الا اثبات ما قد تتابع وقوعهُ منذ فجر التاريخ وهو ان الشعوب تخلف الشعوب والمدنيات تعقب المدنيات وانهُ في دوران الاحقاب لا بد ان يمسي الجديد قديماً وان ينقلب القديم يوماً جديداً

كذلك تنتشر لغة قوم بانتشار حضارتهم فيسارع المغلوب الى تعلمها واتقانها ما استطاع . حتى اذا انحطت تلك الحضارة قل انتشار لغتها ودخلت مع الزمن في صف اللغات الميتة . ان ما هو مقدور قد دمى جميع اللغات القديمة حتى التي يكاد يختلط عهدها بعهد اللغة العربية . لقد ارتفعت اليونانية واللاتينية بارتفاع مدنيتيهما وهبطت معهما او بعدهما بزمن يسير . فماذا نجت اللغة العربية من حكم ذلك المقدور فظلت حية كل هذه القرون الطوال بعد تشتت دول العرب وانتثار العظمة العربية ؟

(٢)

تاريخ بلاد الاغريق هو الفصل الاول من تاريخ اوربا ومدنيتها الحديثة. اي ان حياة اوربا الفكرية من علم وفلسفة وآداب تنتمي الى تلك المدنية المندرسة. وما كانت تتمتع به المدن اليونانية من حرية واستقلال انما هو مثل أعلى يستطلعهُ المفكرون والمصلحون وتنشدهُ آمال الحكومات الحديثة الحرة. وقد بدأ اليونان بحل جميع المشاكل الفلسفية والعلمية التي تضطرب لها افكار أجيالنا فكانوا سبقوا كل فرع من فروع المقدرة البشرية بطابعهم الخاص. وفي ذلك اهمية تاريخهم الفريد

لقد مرّت عليهم عصور كثيرة لم يكونوا فيها الاَّ منفعلين بحضارة الكلدان والسوريين والمصريين اذ كانت شواطىء النيل والفرات منذ زمن بعيد محط مدنيات قد وصلت الى اوج العظمة والاقتدار. لكن جاء يوم بدا تكوّن في نفوسهم كرهٌ شديد للسامين فدفعوا الغرباء عنهم مقاومين تأثير الفينيقيين فيهم مقاومةً عنيفة ليفسحوا المجال لنمو مدنيتهم القومية. فارتقوا ارتقاء باهراً وبسطوا شوكتهم على شواطىء البحر المتوسط. وبينما جيوشهم تحمل اعلامهم الى بلاد الغرباء كان اهل البلاد اليونانية يعيشون عيشة هنيئة مستمتعين بما وضعتهُ جمهورياتهم من النظامات الديموقراطية والاستقلال القومي. ولما ان قام الفرس يهددون بلادهم الاوربية بعد فتح الاسيوية نهضت اثينا واسبارطة لردّ غارات المقتحمين واصبحت اثينا عاصمة المدنية اليونانية منذ القرن الخامس قبل الميلاد. غير ان منافسة اسبارطة لها وأدت بينهما الحرب البيلوبونيزية (١) الشهيرة التي انتهت بانكسار اثينا. ثم جاءت طيبة تزاحم اسبارطة. وهذه الحروب المتوالية اضعفت المدن اليونانية ونالت من تضامنها واستقلالها فسطا عليها فيلبس المكدوني واخضعها لسلطانه. واجتاح ولدهُ الاسكندر مملكة الفرس عدوة اليونان فضمها الى مملكتهِ الواسعة. الاَّ ان الاغريق انقسموا بعضهم على بعض بعد موت الاسكندر فاستدعى الايتوليون الرومان لاصلاح شؤونهم فكان ذلك اول النهاية وصارت بلاد اليونان اقليماً لاتينياً منذ عام ١٤٦ قبل الميلاد

(١) Peloponnesian War — هي الحرب التي دامت بين اثينا واسبارطة من سنة ٤٣١ الى ٤٠٤ قبل الميلاد وكانت نتيجتها تغلب اسبارطة على اثينا

ليست المدنية الاغريقية كبيرة بفتوحاتها بل هي كبيرة بمآثرها العلمية والفلسفية والفنية . اما اللغة اليونانية ففرع من طائفة اللغات الهندية الاوربية التي تنضم اليها لغات الفرس والهند وارمينيا وليتونيا والقلت والجرمان والسلاف . وقد استعملت أولاً في بلاد الاغريق الاوروبية ثم امتدت الى شواطىء آسيا الصغرى والى الجزر التي كانت تأتيها السفن للاستراحة في رحلاتها بين القارتين الاسيوية والاوربية . ولما تعددت مستعمرات اليونان على شفة البحر المتوسط كثر انتشار لغتهم فاصبحت لغة ايطاليا الجنوبية واكثر جهات صقلية وبلغت قارة افريقية يوم شادوا قيرين وبلاد قاليا يوم بنوا مرسيليا

اللغة اليونانية الاولى من اوفر اللغات ثروة تتجلى الفصاحة في رناتها الرخيمة والفاظها الانيقة وأساليبها الفخمة . وقد اكسبها تنوع تشكيلها وتحريك كل لفظ من منطوقها فناً في مقاطع الاصوات وموسيقى لفظية جعلتها آلة فريدة في التعبير عن الافكار والعواطف . وقد امتازت بشيء لم تعرفهُ اللغات الاخرى وهو ان لها مفردات خاصة بالنغمة الشعرية ومثلها للغة النثرية . وقد كتب بها بعد المتقدمين المدعوين « بالمدرسيين » علماء العهد الاسكندراني وآباء الكنيسة الشرقية وادباء الزمن البيزنطي منذ ملك يوستنيانس الى فتح الاتراك لمدينة القسطنطينية (١٤٣٥) . فبلاد الاغريق هي وطن أدب فاق علوّاً وفنّ تفرد كمالاً . ان الشعر القصصي الحماسي (Epic) تكوّن في اعماق النفس اليونانية مع اشعار هوميروس الايلياذه والأوديسا ومع قصائد هيزيودس . وبرز الشعر الغنائي (Lyric) ذو الوجهة الدينية او السياسية او الرثائية مع صولون وساقو واناكريون وغيرهم . ولما جاء العصر الشهير المدعو بعصر بريكلس (١) سمت جميع الفروع الفكرية الى درجة اتقان لا اتقان فوقها : فالروايات المفجعة مع اسخيلوس وصوفوقليس واوريبذس . والروايات الهزلية مع ارستوفانس . والتاريخ مع هيروذوتس وتوسيذيذس وزينفون . والفلسفة مع افلاطون وارسطو . والبلاغة مع خطباء الاطيقيين . هؤلاء وكثيرون غيرهم جعلوا الآداب اليونانية آيات ينسخ عنها الناسخون . ووصل

(١) Pericles هو خطيب وسياسي اثيني وقد كان رئيساً للحزب الديموقراطي . فاصلح البحرية وتابع الفتوحات وحصن اثينا وشاد البرثينون وقد كان منشطاً للفنون والآداب حتى استحق ان يسمى باسمه أعظم عصر عرفته بلاد اليونان في ارتقائها (٤٩٩ — ٤٢٩ قبل الميلاد)

الفن الى طور جماله الانيق الساذج سواء في هندسة البناء والنحت والرسم. الى القرن الرابع ظلّ الادب والفن في منزلة عالية الاّ انهما فقدا قوة الابداع والبداهة. فالرسامون والنحاتون امسوا غير مبتكرين بل نقلوا التماثيل القديمة. والشعراء صاروا ينسجون على منوال هوميرس وامثاله. غير ان الفلسفة لبثت تتألق في سماء مجدها مع الرواقيين والابيقوريين والمشائين والمرتابين واتباع الافلاطونية الجديدة. كذلك كانت علوم التاريخ واللغة في ازدهار

اخضع اللاتين اليونان فاعطاهم هؤلاء مدنيتهم القديمة وباحتكاك الفكرين لطف الفكر اللاتيني وسما سموّاً عظيماً. ثم انشطر العالم الروماني الى شطرين: قلب احدهما روما وقلب الآخر بزنطية (١) وقد زاد الاختلاف الديني في هذا التباعد. فمن جهة اليونان وتلاميذهم السلاف. ومن جهة اخرى اللاتين وتلاميذهم الجرمان والانجلوسكسونيين. لم تتلاش اللغة اليونانية تماماً بعد وقوع بزنطية بل لم يفتأ شعب الاقاليم يتكلم في خلال القرون الوسطى لغة اصطلاحية مشتقة من اليونانية القديمة ومن تلك اللغة الاصطلاحية استخرجت اليونانية الحديثة. اما اليونانية القديمة فقد دخلت في عداد اللغات الميتة منذ زمن طويل ولا يهتم اليوم بدرسها الاّ بعض العلماء ويدرس مبادئها بعض الطلبة في الكليات الكبرى. وقد قلّ الذين يعرفونها بين الاكليروس اليوناني وان كانت تستعمل في الطقوس الدينية

(٣)

يبتدىء التاريخ الروماني بدوراغا هو اقرب الى اعاجيب الاساطير الخرافية منهُ الى الحقائق التاريخية الثابتة ونحن المؤرخون نتابع ملوك سبعة ملكوا في خلاله من عام ٧٥٤ (؟) الى عام ٥١٠ قبل الميلاد. وفي ٥١٠ أعلنت الجمهورية في روما وقد ادّى ذلك بالامة الى استنباط نظامات جديدة كالقنصلية والتشريع وضمها الى ما كان عندها من نظامات سابقة كطبقة الاشراف وامتيازاتها وجمعية المقاطعات ومجلس الشيوخ الخ. وعقب الانقلاب منازعة طويلة بين الاشراف والعامة لم تنتهِ الاّ بفتح ابواب التشريع للشعب. ولما امتدت كلة روما وقويت في الداخل ارادت بسط سلطانها على انحاء جديدة فاجتاحت جميع جهات ايطاليا

(١) Byzance — اسم الاستانة قبل ان يطلق عليها اسم القسطنطينية

وزحفت الى الشرق فهدمت قرطاجنة العظيمة وحوّلت بلاد اليونان الى اقليم لاتيني غير انها رحّبت بتصور هؤلاء اليونان الفكري الذي كان سيفها قد قهرهم. ولما عادت المنازعات الداخلية تبلبل احوال الجمهورية قبض اكتافيوس على أعنة الدولة فاصبح سيد العالم القديم ونودي به امبراطوراً باسم اغسطس يجمع في يده كل اقتدار وسلطة وتشريع

ثم انتقل الصولجان الى القياصرة وعلى رغم ما تخلّل ايام حكمهم من ثورات عسكرية اصبحت روما بعد اخضاع الاغريق عاصمة الشرق والغرب فسميت « سيدة العالم » . وتكاد تنحصر عظمتها الفريدة في القرون الاولى من عهد الامبراطورية لانها كانت حقيقة عاصمة العالم اذ كانت دماغهُ المفكر وقلبهُ الخافق ويدهُ العاملة . وليس من مدينة اخرى حتى ولا انطاكية والاسكندرية تقوى على منافستها وادعاء مالها من الشأن والفخار

في عهد قسطنطين (٣٠٦ — ٣٣٧) اصبحت النصرانية دين روما الرسمي وقد اخّر حزم ذاك الامبراطور زمناً سقوط تلك المدينة العظيمة لكنّ الذين خلفوهُ هبطوا بها الى ادنى دركات الاهمال والتقهقر فما مضى زمن وجيز حتى ثلمت اسوارها حرابُ الطامعين واندكت جدرانها امام غارات الفاتحين

اللغة اللاتينية كاليونانية فرع آخر من طائفة اللغات الهندية الاوربية وهي التي كان يتكلم بها جنود اللاتين والمستعمرون من الرومان فحملوها الى جميع انحاء الدولة ونشروها في كل بلد اكتسحتهُ جيوشهم. فاستخرجت منها اللغات اللاتينية الجديدة (Néo latines) كالفرنساوية والبرتغالية والاسبانية والبرتوغالية والايطالية والرومنشية (او اللادينية) والرومانية (Roumain) . ويظن علماء اللغات ان بين اللاتينية الاصلية واللغات الحديثة المشتقة منها وسيطاً وهو اللغة الرومانية (Langue romane) الخالصة وهي شديدة الشبه بالفرنساوية والبرتغالية

قبل ان تتأثر روما بالمدنية الاغريقية لم تكن على شيء من الآداب اذ يتعذر اطلاق هذا الاسم على بعض الاناشيد الدينية والنكات المبتذلة وفن الايماء او التخييل (pantomime) الذي كان يطرب لهُ اللاتين طرباً شديداً . على ان اختلاطهم باليونان بث فيهم الميل الى الاقتداء بهم من حيث الابداع الفكري والرغبة في تعاطي الآداب الكتابية . فكان الشعر اللاتيني في بادىء الامر مقلداً الشعر اليوناني في الاساليب والموضوعات او ناقلهُ الى اللاتينية معنى ومبنى . اما

اول الناثرين فكانوا مؤرخين واشهرهم كاتو الرقيب(١) الذي الف تاريخ اهم المدن الايطالية . ووضع غيره تواريخ عامة او خاصة في الشعوب اللاتينية وقد كان اكثرهم مستوحياً مؤرخي الاغريق متتبعاً خطاهم في سياق الكلام وتصنيف الفصول وتبويب التآليف . وقد ظلت البلاغة اللاتينية فظة متوعرة مدة طويلة فما لمستها البلاغة اليونانية حتى انقلبت فنّاً مرناً عظيماً استمر مصطلحاً مكتملاً تحت تأثير البيان الاغريقي وكان نظام روما السياسي ملائماً لفن الخطابة اذ كانت اساليب الكلام متوفرة للمحامين والمتشرعين

لقد كانت بلاد اليونان مدرسة روما لان شبان اللاتين العازمين على الاشتغال بالمحاماة والوقوف على المنابر كانوا يقصدون مدارس اليونان الكبرى لاتمام دروسهم وتثقيف عقولهم كما ان كثيرين من الاغريق كانوا يدرّسون في روما فن الخطابة والالقاء . واذا استقصى باحث كتابات العهد المدعو « بعهد اغسطس » (اي آخر قرون الجمهورية) تحقق ان جميع المؤلفين كانوا مطلعين على اشهر مصنفات الاغريق من شعر ونثر وانهم يقلدونهم ما امكن . واشهر هؤلاء شيشرون العظيم وهو تلميذ اليونان في الخطابة والكتابة والفلسفة جميعاً . كذلك المؤرخون والشعراء على وجه خاص

لكنّ هذا لا يعني ان الآداب اللاتينية حاشية معلقة على هامش الآداب اليونانية . بل كان لها طابعها الخاص لانها امتزجت اكثر من تلك بالاحوال العمومية وحياة الامة . ذلك ان اكثر الكتّاب من خطباء ومؤرخين وفلاسفة مثّلوا دوراً سياسياً عظيماً فكان لعلمهم وافكارهم اثر فعال في مصالح الدولة وكفى ان يذكر منهم شيشرون وقيصر ومارکس اوريليوس وتاشيتوس وپلينيوس الاول وپلينيوس الثاني ليثبت لنا ما تقدم . ولما كانت الآداب اللاتينية متعلقة بالتاريخ السياسي كان اللاتين جاعلين نصب اعينهم في فن الخطابة ما كان يعمل اليونان في اكثر كتاباتهم

فن اللاتين كآدابهم منقول عن الفن الاغريقي . الاّ انهما يختلفان في ان الاول يقلد الثاني بلا امانة ثم يخلطهُ بصنوف فنية اخرى فيحرمهُ بساطتهُ الانيقة . والزخرفة القليلة التي كان يستعملها الاغريق بمنتهى التحفظ كان الرومان يجودون بها على ابنيتهم وصروحهم بلا حساب . فلئن كانت الآثار الرومانية اقل دقة وسذاجة

(١) Caton de Censeur سياسي ومؤرخ روماني

من الآثار اليونانية فهي لا تعدم عظمة خصيصة وجلالاً يلتي الهيب في نفس الناظر اليها . بيد ان فن النحت في روما امتاز بفرع لم يكن ليهتم به الاغريق كثيراً وهو تماثيل الاحياء . ومن عادات الرومان القديمة قبل اختلاطهم باليونان انهم كانوا يحفظون في منازلهم صور آبائهم وجدودهم وكانت تلك الصور والتماثيل تصنع في بادىء الامر من الشمع او الخشب ثم ارتقت بارتقاء الفن فصارت تحفر في الرخام . والرغبة في التزلف الى القياصرة وتملق كبار الشعب كانت تؤدي الى الاهتمام بتماثيلهم ووضعها في الابنية العمومية وصروح الحكومة ومن هنا كثرة التماثيل اللاتينية واتقانها

أما في غير ذلك فقد صدق الشاعر اللاتيني القائل : « ان بلاد الاغريق المغلوبة ارتدت على قاهرها في دورها »

(البقية للجزء الآتي) (مي)

شفاء سرطان في الثدي

وكيفية المعالجة

الدكتور اسعد حداد من اشهر اطباء الاسكندرية ومن اكثرهم اشتغالاً بصناعة الطب وبحثاً في اصولهِ وحقائقهِ . وقد بلغنا منذ عهد قريب انهُ عالج سيدة اوربية مصابة بسرطان الثدي فشفاها منهُ . ولما سألناهُ عن صحة هذا الخبر اكدهُ لنا واخبرنا بطريقة العلاج فظهر لنا انها يمكن ان تفيد ولا يمكن ان تضر . واظهرنا رغبتنا في مشاهدة هذه السيدة فاستدعانا لمشاهدتها في رمل الاسكندرية فشاهدناها ودققنا النظر في مكان السرطان وسألناها وسألناهُ اسئلة كثيرة وها نحن نوردون هنا خلاصة ما وقفنا عليهِ منهما بعد استئذانهِ واقناعهِ بوجوب نشرهِ لكي يسهل عليهِ امتحان علاجهِ في غيرها

عمر السيدة ٥٤ سنة وهي متزوجة ولها اولاد

تاريخ العلة — رأت منذ نحو ست سنوات او اكثر اورماً صلبة مستطيلة مؤلمة في ثديها الايسر وشعرت بتصلب حول الحلمة ورأت فيها انكماشاً الى الداخل . ومنذ اربع سنوات اخذ الجلد حول الحلمة وعلى سطح هذه الاورام يتقرح وجعل التقرح يتسع ويعمق وهي تتحمل الآلام وتكتم ذلك عن كل احد الى ان